محمد ﷺ الرئيس

الرئيس الصديق

من الحسن أن نكتب عن محمد ﷺ الرئيس بعد كتابتنا عن محمد ﷺ الصديق ؛ لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة الاختيارية فمحمد ﷺ الرئيس هو الصديق الأكبر لمرءوسيه ، مع استطاعته أن يتميز بكل وسيلة من وسائل السلطان .

فهناك الحكم بسلطان الدنيا .

وهناك حكم بسلطان الآخرة .

وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة .

وكل أولئك كان لمحمد ﷺ الحق الأول فيه : كان له من سلطان الدنيا كل ما للحاكم المطلق اليدين في شعبه ، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبي الذي يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون [1] وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفؤ .

---

(1) الله تعالى وحده هو الذي يعلم الغيب والأنبياء لا يعلمون الغيب ولم يدعوا ذلك إلا ما يعلمه الله تعالى ما شاء منه يقول تعالى : ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجنّ:٢٦ ، ٢٧] ويقول تعالى على لسان النبي ﷺ ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨] ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠]

ولكنه ﷺ لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر بسلطان الصديق الأكبر ، بسلطان الحب والرضا والاختيار .

فكان أكثر رجل مشاورة لأصحابه ، وقد جعل من شروط الإمامة في الحكم بل في العبادة حب التابعين للإمام فالإمام المكروه لا تُرْضَى له صلاة . (١)

وكان يدين ﷺ نفسه بما يدين به أصغر أتباعه ، فُرُويَ أنه ﷺ كان في سفر ، وأمر أصحابه بطهو شاة فقال رجل يا رسول الله عليَّ ذبحها ، وقال آخر عليَّ سلخها، وقال آخر عليَّ طبخها فقال ﷺ " وعليَّ جمع الحطب " فقالوا يا رسول الله نحن نكفيك فقال : " قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه " (٢)

ورفض والمسلمون يعملون في حفر الخندق حول المدينة إلا أن يعمل معهم بيديه لتصير سُنَّة حميدة يُقْتَدَي بها الرؤساء في حمل التكاليف .

وجعل قضاء حوائج الناس أماناً من عذاب الله أو كما قال : "إنَّ للهِ تعالى عبادًا اختصهمْ بحوائجِ الناسِ، يفزعُ الناسُ إليهمْ في حوائِجِهم، أولئكَ الآمنونَ منْ عذابِ اللهِ" [ضعيف الجامع الصغير]

الشرع له ظاهر

وقد كان الناس أن الأعمال بالنيات (٣) ولكنه علم كذلك " إِنَّ الأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ " [حديث صحيح رواه الطبراني وغيره] فأوكل الضمائر إلى أصحابها وإلى الله ، وحاسب الناس بما ينفع فيه الحساب .

---

(1) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " ثَلاَثَةٌ لاَ تُجَاوِزُ صَلاَتُهُمْ آذَانَهُمُ الْعَبْدُ الآبِقُ حَتَّى يَرْجِعَ وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ وَإِمَامُ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ " [صحيح الترمذي]

(2) هذا الأثر على شهرته لا أصل له ، وما لا أصل له لا تجوز روايته ، ونسبته إلى النبي ﷺ .

(3) عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَخْطُبُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " [متفق عليه]

سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم قائلاً : " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ النَّارِ فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ يَذَرْهَا (يتركها) " [متفق عليه] واليوم يكثر المنادون بحرية الفكر ويحسبونها كشفاً من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن في كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة .

فهذا الذي يحسبونه كشفاً من كشوف العصر الأخير قد جرى عليه حكم النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرناً وشرعه لأمته في أحاديثه حيث قال : " إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ " [متفق عليه]

الرحمة فوق العدل

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل في تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا إليها وهي دعوة النبي العربي التي كررها ولم يتركها أبداً إلى غيرها فقال : " لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي " [صحيح البخاري] وقال : " إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفق ، مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ " [صحيح مسلم] وقال : " إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِى مُعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِى مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا " [صحيح مسلم] وروى عنه صاحب من أصحابه أنه ما خُيَّر بين حكمين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه مخالفة للدين .(١)

---

(1) عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : مَا خُيِّرَ رسول الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلاَّ أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثماً ، فَإِنْ كَانَ إِثماً ، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ . وَمَا انْتَقَمَ رسول الله ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ ، إِلاَّ أن تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله ، فَيَنْتَقِمَ للهِ تَعَالَى " [متفقٌ عَلَيْهِ]

بنية الضعفاء

وكان يوصي بالضعاف ويقول لأصحابه : " ابْغُوني الضُّعَفَاء ، فَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ ، بِضُعَفَائِكُمْ " [صحيح أبي داود] ويذم التعالي على الخدم والفقراء " ما استَكْبرَ مَن أَكَلَ معَهُ خادمُهُ، ورَكِبَ الحمارُ بالأسواقِ، واعتَقلَ الشَّاةَ فَحلبَها " [صحيح الجامع الصغير] لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير : " مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا فَلَيْسَ مِنَّا " [صحيح أبي داود وغيره] فلكلٍّ حق ولكلٍّ إنصاف ، وإنزال الناس منازلهم كما أمر قومه . (١)

وهو خير شعار تستقيم عليه الحكومة .

أهل الكفاءة لا أهل الثقة

وكان النبي الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع المرءوسين وليست للموافقين منهم دون المخالفين ، فيأمر قومه أن : " اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ " [حديث صحيح رواه أحمد وغيره]

لقد كانت سنة الرئاسة عند محمد ﷺ هي سنة الصداقة فلو استغنى حكم عن الشريعة لاستغنى عنها حكم هذا الرئيس الذي جاء بالشريعة لجميع متبعيه .

***

(1)عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ " [صحيح مسلم]

obeikandl.com